

المدرسة الكوفية:

يقول الدكتور إبراهيم السامرائي: (لقد عرفت الكوفة كما عرفت البصرة، فكلتاهما مصران قد مَصَّرهما المسلمون واشتهر كل منهما طوال التاريخ الإسلامي، وشغلتا مكانًا واضحًا في القرنين الثاني والثالث، وكان لكل منهما أثر في السياسة، فقد عرفت الكوفة بعلويتها كما عرفت البصرة بعثمانيتها).

وكان أهل المصريين على اتصال فيما بينهم، وأنت لا تعدم أن تجد بصريين قد استوطنوا الكوفة لغرض ما، كما تجد كوفيين آخرين اتخذوا البصرة سكنًا لهم، وكانت الكوفة مركزًا من مراكز العلم كما كانت البصرة، ولسنا على يقين تام في سبق البصريين وانصرافهم إلى العلم على الكوفيين، إلا ما كان من ذلك في العلوم اللغوية، فقد عرف النحو في البصرة، قبل الكوفة() ، وقال أيضًا: (إن النحو الكوفي بدأ بظهور أبي جعفر الرُّؤاسي، وقد تلمذ له الكسائي والفراء).

وقال الأستاذ شوقي ضيف: (تركت الكوفة للبصرة وضع نُقْط الإعراب في الذكر الحكيم ووضع نقط الإعجام، والأنظار النحوية والصرفية الأولى التي تبلورت عند ابن أبي إسحاق، والتي أقام عليها قانوني القياس والتعليل؛ إذ كانت في شغل عن كل ذلك بالفقه ووضع أصوله ومقاييسه وفتاواه وبالقرءات وروايتها رواية دقيقة، مما جعلها تحظى بمذهب فقهي هو مذهب أبي حنيفة، وبثلاثة من القرء السبعة الذين شاعت قرءاتهم في العالم العربي، وهم عاصم وحمزة والكسائي).

وعنيت بجانب ذلك عناية واسعة برواية الأشعار القديمة وصنعة دواوين الشعر، وإن كانت لم تعن بالتحري والتثبت فيما جمعت من أشعار، حتى ليقول أبو الطيب اللغوي: (الشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة، ولكن أكثره مصنوع ومنسوب إلى من لم يقله، وذلك بيّن في دواوينهم)، جعل المعنيون بتاريخ النحو القديم بداية النحو الكوفي موصولة بأبي جعفر الرُّؤاسي، وإلى مثل هذا ذهب المعاصرون، فقد قيل: إن لأبي جعفر الرُّؤاسي كتابًا في النحو قد اطلع عليه الخليل بن أحمد وانتفع به،

وكان هذا هو الذي جعل المعاصرين يذهبون إلى التنافس المزعوم بين الخليل والرؤاس، على أن من العلم أن نقول: إن النحو الكوفي بدأ بظهور أبي جعفر الرؤاسي، وقد تلمذ له الكسائي والفراء، وقد ذكر أبو البركات ابن الأنباري أن له كتاب (الفيصل)، وكان ثعلب قد أشار إلى أنه أول كتاب في نحو الكوفيين، وكتاب (التصغير)، وكتاب (معاني القرآن)، وأشار ابن النديم إلى أن هذا الكتاب كان يروى إلى أيامه، وكتاب (الوقف والابتداء).

والرؤاسي فيقول مترجموه: إنه أخذ النحو عن عيسى بن عمر وأبي عمرو بن العلاء، وعاد إلى الكوفة فتلمذ عليه الكسائي، وألف لتلاميذه كتابًا في النحو سماه (الفيصل)، وكان يزعم أن كل ما في كتاب سيبويه من قوله: (وقال الكوفي) إنما يعنيه، غير أن الكتاب يخلو خلواً تاماً من هذه الكلمة، وإن كان قد ذكر أهل الكوفة مع بعض القراءات في ثلاثة مواضع).

ويتابع قائلاً: (إنما يبدأ النحو الكوفي بدءاً حقيقياً بالكسائي وتلميذه الفراء، فهما اللذان رسماً صورة هذا النحو ووضعاً أسسه وأصوله، وأعداً له بحذقهما وفطنتهما لتكون له خواصه التي يستقل بها عن النحو البصري، مرتبين لمقدماته ومدققين في قواعده، ومتخذين له الأسباب التي ترفع بنيانه).

أخذ الكسائي العلم عن أئمة البصرة ثم رجع إلى الكوفة فوضع أسس المدرسة الكوفية التي اعتمدت على الاتساع في رواية الأشعار وجعله أصلاً يقيس عليه. ثم تبعه الفراء الذي على يديه تكامل المنهج الكوفي واتضحت ملامحه.

ثم تتابع العلماء الكوفيون من بعدهم على استظهار آراء المدرسة الكوفية حتى غدت مدرسة مستقلة بأصولها وقواعدها تنافس المدرسة البصرية، وجاء العلماء فسجلوا آراء المدرستين عند عرضهم للمسائل المختلفة كما فعل ابن الأنباري في كتابه (الإنصاف في مسائل الخلاف) وغيرها من كتب الخلاف

أهم علماء المدرسة الكوفية:

إن لكل مدرسة رجالاً، وإن لهذه المدرسة رجالاً، حملوا دعائم هذه المدرسة بهمة، فنهضوا بها، وأعلوا شأنها، ومن رجال مدرسة الكوفة علماء أجلاء، وجنود أوفياء، قاموا بساعد الجد والعزيمة، فسعوا لنشر مذهبهم، وهم على طبقات ونفصل القول في بعضهم :

•الرؤاسي:

هو أبو جعفر محمد بن الحسن، مولى محمد بن كعب القرظي، لقب بالرؤاسي لكبر رأسه، نشأ بالكوفة، وورد البصرة فأخذ عن "أبي عمرو بن العلاء" وغيره من علماء الطبقة الثانية البصرية، ثم قفل إلى الكوفة، واشتغل فيها بالنحو مع عمه معاذ وغيره، فتكونت الطبقة الأولى الكوفية، وكان إماماً بالنحو بارعاً في اللغة، وهو أستاذ أبي الحسن علي بن حمزة الكسائي والفراء، ثم صنف كتابه (الفيصل) في النحو، ومعلوم أن الخليل بعث إلى الرؤاسي يطلبه فأرسله إليه، وأن سيبويه نقل في كتابه عنه كما نقل عن البصريين، فإلى الرؤاسي يرجع بدء النحو في الكوفة دراسة وتأليفاً، فهو رأس الطبقة الأولى الكوفية، وكتابه أول مؤلف في النحو بالكوفة، توفي بالكوفة في عهد الرشيد؟.

الكسائي:

هو أبو الحسن علي بن حمزة: مولى بني أسد، فارسي الأصل، سئل عن تلقيبه بالكسائي فقال: (لأنني أحرمت في كساء)، وقيل في السبب: لأنه كان يلبس كساء أسود ثميّاً، وُلد بالكوفة في سنة تسع عشرة ومائة للهجرة، ونشأ بها، وأكب منذ نشأته على

حلقات القراء، وتعلم النحو على كبر؛ ذلك لأنه حادث قومًا من الهباريين لحنوه فأنف من التخطئة، وقام من فوره وطفق يتعلم النحو، فأخذ عن معاذ الهراء ما عنده، ثم توجه تلقاء البصرة، فتلقى عن عيسى بن عمر وأبي عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب المناظرات، له مصنفات كثيرة، منها في النحو مختصر، ولما ذاعت شهرته طلبه المهدي ليتخذه مؤدبًا لابنه هارون الرشيد، حتى إذا ولي الخلافة بعد أبيه اتخذه مؤدبًا لابنيه الأمين والمأمون، خرج مع هارون الرشيد ومعه صاحبه محمد بن الحسن الشيباني في رحلته إلى فارس حتى كانوا في رنبويه (بلد قرب الرّي)، وأحس الكسائي بقرب المنية ثم مات هو ومحمد، فقال الرشيد: اليوم دفنت الفقه والنحو برنبويه، وذلك سنة 189هـ.